كيف نربي ابناءنا

للأستاذ على حسنى ابراهيم

ضمنى وبعض الأصدقاء أحد المجالس ، وجرى بنا الحديث الى شباب هذا الجيل وما يلقى الآباء فى تربيتهم من المشقة والإرهاق ، وكيف تغيرت الحال عما كانت عليه قبل جيل واحد ، أيام كانت للأب الكلمة العليا فى منزله بين زوجه وأبنائه ، يحكم فلا راد لحكمه ، ويتكلم فلا معقب عليه .

واستفاض الحديث فى الأبناء ، واستفاضت الشكوى منهم : فهم لا يوقرون آباءهم كما كانوا هم يفعلون ولا يحلون نصحهم وارشادهم المحل اللائق من الامتثال والتقدير ، ولا يقبلون على الدروس كما كانوا يقبلون . وهم بعد ذلك أنانيون ، كثيرو المطالب والنفقات ، لا يبالون فى سبيل ذلك أن يحملوا آباءهم مالا قبل لهم به ، وأن يكلفوهم ما تنوء به مواردهم . ثم هم حريصون على أن تطلق لهم الحرية فى غدوهم ورواحهم ؛ وفى اصطحاب من يصطفون من الأصدقاء والرفقاء ، لا يستمعون فى ذلك لنصح ، ولا يأبهون لنقد .

واختلفت الآراء بين هؤلاء الأصدقاء فى أسباب هـذه الحال : فمن قال إنها ترجع إلى انتشار مبادئ الحرية وما صحبها من التحرر من قيود الأخلاق الفاضلة والتقاليد الصالحة ، ومن قائل إنها ترجع إلى تهاون الآباء ونزولهم عن سلطتهم التقليدية ، ومن قائل إنها أثر من آثار الفوضى التى تسود هذا الجيل فى تطوره من القديم إلى الحديث .

وكما اختلفت الآراء فى أسباب هذه الحال ، اختلفت كذلك فى وصف العلاج المناسب لها ، ولكنها اتفقت على أنها حال شديدة الخطر على مستقبل الشباب ، وعلى مستقبل الأمة .

ذكرنى هذا الحديث برجل عرفته من عهد بعيد : كان لهذا الرجل ولدان ، اجتمع فى أكبرهما كل صفات الولد الفاسد من عقوق لوالديه ، وتطاول عليهما ، وابتزازلأموالهما بالقوة والتهديد ، و إخفاق متوال فى المدرسة ، وكان أبوه دائم الشكوى منه ، كثير السخط والدعاء عليه . أما أصغرهما فكان قرة عين أبيه ؛ يظهر من الرضاء عنه والاستبشار به ، مقدار ما يبدى من السخط على أخيه واليأس منه ، وكان يعقد عليه الآمال الكبيرة ، ويرى فيه خير عوض عما فاته فى أخيه . وانقضت السنون ، وكبر الولد الأصغر ، فاذا هو نسخة أخرى من أخيه ، وصورة كاملة له ، واذا بالأب يلقى منه مالقى من أخيه ، ويشكو منه نفس الشكوى .

لم أعجب لما آل اليه أمر الولد الأصغر ، فقد نشأ وهو يرى فى أخيه قدوة سيئة لم تلبث عدواها أن سرت اليه ، ثم لقد كان هو الأخر — كما كان أخوه من قبل — ضحية لوالده فقد

كان ذلك الوالد على طيبة قلبه، وصدق طويته، أجهل الآباء بتربية أبنائه، وأقلهم استعدادا لذلك، ولم تكن الأم بأوفر من الأب في ذلك حظا، أو أكثر توفيقا .

ذكرت هذا المثال لأدلل على أن المسئولية الكبرى في تربية الأبناء إنما تقع قبل كل شيء على عاتق الآباء، وأن ليست مبادئ الحرية، ولا زوال الآباء عن سلطتهم التقليدية ولا فوضى التطور الحديث، ليس شيء من ذلك، بل وليست كلها مجتمعة بالسبب الحقيقي لما نشكوه من شباب هذا الجيل .

لقد كانت تربية الأبناء منذ التقدم — وستبقى أبدا — من أولى مهام الآباء وأجدرها بأن يعيروها كل عناية ويقفوا عليها كل جهد، وإذا كان الآباء يلقون الآن من المشقة في تربية أبنائهم ما لم يلقه أمثالهم من قبل فاللوم في ذلك واقع عليهم لقد تطور الزمن، وتطور معه الأبناء، وكان حقا على الآباء أن يسايروا هذا التطور، وأن يعدلوا في أساليب تربية أبنائهم بما يتلاءم معه ولكنهم لم يفعلوا أوهم حاولوا أن يفعلوا فلم يوفقوا، وكانت النتيجة أن أفلت منهم زمام أبنائهم أو كاد .

ليست الحرية التي يطالب بها الأبناء في هذه الأيام، والتي يعزو اليها الآباء كثيرا من المساوئ شرا كلها، بل ليست شرا أصلا إذا عرف الآباء كيف يتخذون منها أداة تصلح من شأن أبنائهم، وتعينهم على خوض معترك الحياة، وعرفوا في الوقت نفسه كيف يرسمون لها حدودا لا تتعداها، ولا تطغى على ما لهم من سلطة أبوية مشروعة هي الدعامة التي يرتكز عليها بناء الأسرة وتقوم سعادتها .

إن تربية الأبناء فن ككل الفنون له أصوله وقواعده، وإذا كنا لا نطمع في أن يلم كل والد بتلك الأصول والقواعد، أو يتوفر على دراستها، فإننا ننتظر أن يعنى كل منهم العناية كلها بالتفكير في تربية أبنائه، وأن يضع لذلك الخطط المنظمة مسترشدا بتجاربه الخاصة، وتجارب سواه، وبما يوحيه إليه الذوق السليم وحسن التصرف .

وإذا كان من حق الوالد أن ينتظر من ابنه أن ينشأ بارا، مطيعا، مؤديا لواجبه، نافعا لأسرته، فإن من واجبه — وهو متدوره أيضا — أن يمهد له الطريق لذلك، ويعينه عليه، إذ ليس من العدل ولا من طبائع الأشياء أن ينال المرء حقوقه كاملة إلا إذا قام بواجباته كاملة كذلك .

ولن يتسع المقام هنا لقول كل ما يمكن قوله فيما يجب على الآباء اتباعه لتنشئة أبنائهم نشأة صالحة تحقق آمالهم، وترضي مطامحهم. لذا سأقتصر على ذكر طائفة من المبادئ الأساسية أعتقد أن في الأخذ بها تيسيرا لمهمة الآباء وقضاء على كثير من أسباب شكواهم، وإصلاحا لشأن الأبناء، وعونا لهم على تأدية واجبهم .

الطفل فى السنوات الأولى :

يجب أن يوضع أساس تربية الطفل فى السنين الأولى من عمره ، فان الطفل فى هذه السن يكون سريع التأثر بما يلقى عليه ، مطواعا ، سهل القياد ، يمكن تشكيل أخلاقه وصبها فى القالب الذى يختاره والداه . ثم ان الآثار التى تنطبع فى ذهنه فى هذه السن ، والأخلاق التى ينشأ عليها تبقى راسخة ، لا تنال منها الأيام ، ولا يضعفها الزمن .

لهذا يجب بذل العناية كلها بتربية الطفل فى حداثته ، ووضع " الدستور " الذى يحدد علاقاته بوالديه و باقى أفراد الأسرة . وهو دستور اذا وضع فى هذه السن وتشربته روح الطفل يكتسب كل ما للدساتير من قدامة ، واستقرار ، وصعوبة فى التعديل .

ويجب أن يعنى العناية كلها بالطفل الأول . فانه هو الذى سيكون قدوة أخوته من بعده ، يحتذون حذوه ، و يتبعون سيرته .

الوسط الذى ينشأ فيه الطفل :

تجب العناية بالوسط الذى ينشأ فيه الطفل ، فان الطفل — وبخاصة فى السنين الأولى — شديد التأثر بما يحيط به ، سريع القدوة ، شغوف بالمحاكاة والتقليد . لذلك يجب أن يجعل الوالدان من نفسهما خير قدوة ، وأن يعلما أن ولدهما يحصى عليهما كل حركة وكل كلمة ، فلا يتفوها أمامه بكلمة نابية ، ولا يأتيا ما لا يصح أن يطلع عليه . وليحذر كل منهما أن يظهر أمام أولاده بمظهر الكاذب ، أو الواشى ، أو المغتاب للغير ، أو المغتصب ماليس له . وليحرص الأبوان على ألا يطلع أبناؤهما على ماقد يقوم بينهما من خلاف أو شجار ، فان لذلك أسوأ الأثر فى نفوس الأبناء ، وفى احترامهم لوالديهم .

وتجب العناية بانتقاء الخدم ، ومراقبتهم ، وعدم الركون اليهم فى تربية الطفل . كما يجب اختيار الأولاد الذين يسمح له بمخالطتهم واللعب معهم .

كذلك يجب انتقاء الكتب والقصص التى يقرأها الأولاد ، و" الأفلام " والملاهى التى يذهبون لمشاهدتها .

دراسة الأطفال :

يجب أن يعنى الوالدان بدراسة كل طفل من أطفالها على حدة ، والعمل على تفهم نفسيته ، والنزول الى مستواه العقلى لفهم تصرفاته و بواعثها ، وتبين مواطن ضعفه ، ومدى مقدرته ، وذلك حتى يمكن أخذه بما يلائمه من طرق التربية ، وحتى لا يكلف ما لا يطيق ،

فإن الأخوة . وإن ساعدت البيئة والوراثة على أن ينشأوا فى العادة متقاربين فى العقل والمزاج والخلق والآمال ، كثيرا ما يختلفون فى بعض هذه الأشياء ، أو فيها جميعا لعوامل أخرى منها مرض الوالد أو الوالدة أو الطفل نفسه .

ويجب توجيه كل طفل للوجهة التى تلائم ميوله ، وتتفق واستعداده ، والتى تتجلى فيها مواهبه ، ويظهر نبوغه . فكثيرا ما ضاع مستقبل الطفل لأنه وجه وجهة أخرى غير ما أعدته لها الطبيعة .

وإذا كنت أدعو إلى أخذ كل ولد بما يتفق وطباعه ، فإنى أدعو كذلك إلى وجوب العدل فى معاملة الأولاد والتسوية بينهم ، فلا يختص الأبوان أحدا منهم بالعطف دون الآخرين ، أو ينصرا ولدا على أخيه إلا بالحق ، فإن التمييز بين الأولاد يبعث فى نفوسهم الغيرة والحسد ، ويفسد ما بين أعضاء الأسرة جميعا .

السلطة الأبوية :

يجب أن يحتفظ الأبوان بسلطتهما الأبوية كاملة ، فلا يسمحا أبدا بتجاهلها ، أو الانتقاص منها ، وليعلما أنهما لو تهاونا فى ذلك ولو مرة واحدة ، فقد عرضاها لخطر الضياع ، وأصبح من أشق الأمور عليهما استرجاعها ، وإعادتها سيرتها الأولى .

ولما كانت هذه المسألة هى مثار النزاع بين كثير من شباب هذا الجيل وبين آبائهم ، وكان من رأيى أن احتفاظ الآباء بها هو السبيل الوحيد لتمكينهم من تربية أبنائهم التربية الصحيحة ، وأنه فى صالح الولد نفسه كما هو فى صالح الأبوين وباقى الأسرة ، فإنى سأحاول هنا أن أدل الآباء على الوسيلة التى تمكنهم من الاحتفاظ بهذه السلطة مع تقبل الأبناء لها ، واطمئنانهم إليها .

يجب أن يشعر الطفل من بدء نشأته بسلطة والديه ، وبوجوب امتثاله لأوامرهما ، فإن الطفل فى السنين الأولى يكون كما قدمت مطواعا سهل القياد ، ومتى اعتاد الطفل هذه السلطة لم تجد نفسه مشيئة فى تقبلها والإذعان لها .

ويجب أن يشعر الولد بأن والديه لا يصدران فيما يلقيان إليه من أمر أو نهى إلا عن رغبة صادقة فى إسعاده ، والحرص على خيره ، وأنهما لا يفعلان ذلك إرضاء لشهوة عارضة ، أو نزعة استبدادية . فإذا اطمأنت نفسه لذلك ، وسكنت إليه ، سهل عليه الانقياد لهما حتى لو غاب عنه أحيانا وجه الحكمة فى بعض تصرفاتهما .

ويجب أن يتدرج الأبوان فى منح ولدهما بعض الحقوق والحريات كلما تقدم فى السن ، فإن فى هذا إدخالا للسرور على نفسه ، وإشعارا له بتقدمه يوما عن يوم ، وتدريبا له على

استعمال تلك الحقوق والحريات . ويجب أن يكون منحها عن رضى واختيار ، فإن من أشنع الخطأ أن يعطى الآباء مثل هذه المنح نتيجة للضغط أو الإكراه لأن ذلك يذهب بكل قيمتها ، ويغرى الأبناء بالتمادى فى مطالبهم ، وعدم الوقوف بها عند حد .

ويجب احترام شخصية الطفل ، والعمل على تقويتها وإبرازها ، وإشعاره بأن له إرادة مستقلة لا يعترضها الأيوان إلا إذا خرجت به عن الطريق السوى ، فإن شخصية الطفل وإرادته المستقلة من أمضى أسلحته فى معترك الحياة ، ومن الجرم الذى لا يغتفر للوالدين أن يكونا سببا فى تجريده منها ، أو الإضعاف من قوتها .

المثوبة والعقاب :

لست أغالى إذا ذكرت أن المثوبة والعقاب — وهما أقوى مظاهر السلطة الأبوية — من أشد العوامل أثرا فى تربية الطفل ، وفى علاقته بوالديه ، وأن السبب فى نجاح فريق من الآباء فى تربية أبنائهم وفشل فريق آخر يرجع لدرجة كبيرة إلى أن الفريق الأول عرف كيف يحسن استعمالها ، بينما أساء الفريق الثانى ذلك .

فإثابة الطفل المحسن تشجعه على مداومة الإحسان ، وتشحذ همته ، وتقوى عزيمته ، وتغرى غيره بأن يحذو حذوه ، ويحسن مثله . ولكن المثوبة — ككل شىء آخر — يجب أن توضع موضعها ، وأن تتناسب مع العمل ، فهى تتدرج من نظرة رضا ، إلى كلمة ثناء ، إلى تحقيق رغبة من رغبات الطفل ، وتصل أخيرا إلى المكافأة المادية ؛ ولكن يجب عدم الإسراف فى الثناء وإلا ملك الغرور الطفل ، كما يجب الإقلال من المكافآت المادية ، وعدم منحها إلا لعمل جليل فوق ما ينتظر من الطفل عادة ، وإلا ضاعت الحكمة فيها ، واعتاد الطفل أن يقيس قيمة الأعمال بمقياس مادى صرف .

أما العقوبة فهى أكبر خطرا من الثواب ، وتستدعى حرصا أكثر فى تقديرها ، لما تسببه للطفل من الألم ، وما تشعره من المذلة ، وهى — كالمثوبة — ينبغى التقصد فى توقيعها ، والتجاوز أحيانا عن بعض الهنات القليلة الخطر ، وإلا فقدت تأثيرها ، كما ينبغى أن تتناسب مع الذنب ، وأن يشعر الطفل بأن ما ارتكبه من الخطأ يستحق العقوبة التى وقعت عليه ، وإلا ترك شعوره بالظلم أسوأ الآثار فى نفسه ، وينبغى كذلك ألا تكون من نوع يجرح كرامة الطفل أو يحقره فى نظر نفسه .

ويجب ألا يسرف الأب فى بذل الوعود ، أو التهديد والوعيد ؛ فإذا وعد تحتم عليه الوفاء ، وإذا أوعد كان عليه إنفاذ ما أوعد به ، كما يجب ألا يكون الوالد أسرع إلى العقوبة منه إلى المكافأة ، وألا يتجاهل حسنات أبنائه بينما هو يحصى عليهم كل سيئاتهم .

فى المدرسة :

تقوم المدرسة بإعداد الطفل للحياة العملية، ويشارك مدرسوها الوالدين فى تربية أبنائهم وتكوين أخلاقهم . فمهمة المنزل والمدرسة متشابهة . وواجباتها مشتبكة متداخلة ، لهذا كان التعاون بينهما ضروريا لنجاح الطفل، وكان على الأب أن يراقب سير أبنائه فى المدرسة وتقدمهم فيها ، وتأديتهم ما يكلفون به من واجباتها ، وأن يوالى إرشادهم وحثهم على الجد، وتشجيعهم إذا أحسنوا . ولومهم إذا قصروا، على ألا يبالغ فى شىء من ذلك و إلا فقدوا فضيلة الاعتماد على النفس ، وأصبحوا لا يؤدون شيئا من واجباتهم إلا لكى يسوقهم الأب إلى ذلك سوقا . وعليه ألا يتطلب من أحدهم فوق طاقته ، أو يلومه لقصور فى إدراكه ، أو يظهر يأسه منه ، و إلا فقد الولد ثقته بنفسه ، وفى ذلك أبلغ الضرر .

وعلى الأب الا يطالب أبناءه بالمذاكرة طول الوقت ، وأن يسمح لهم بأن يستوفوا قسطهم من الراحة والاستجمام ، و إلا أدركهم التعب والسأم . ولم ينتفعوا بما يبذلونه من مجهود .

وعليه أن يعنى بتربية أبنائه البدنية عنايته بتربيتهم العلمية ، وأن يشجعهم عليها، ويمهد لهم سبلها ، ولا يضن بالوقت الذى ينفق فيها ، فان العقل السليم فى الجسم السليم كما تقول الحكمة القديمة . وقد أجمعت أمم العالم المتحضرة على أن تربية تنشىء العقول الراجحة ، والأخلاق المتينة ، كما تنشىء الأجسام القوية ، تحتلها لذلك المكان الأسمى من عنايتها .

دور الأم :

وليس دور الأم فى تربية أبنائها أقل خطرا من دور الأب ، فهى تستطيع بضم جهودها إلى جهود الأب أن تساعد على توجيه الولد الوجهة الصالحة، وقد تفصل بحنانها ولين أخلاقها والتفاهم المتبادل بينها وبين أبنائها إلى ما لا يصل اليه الأب من التأثير فيهم ، وإصلاح شأنهم .

على حسنى إبراهيم